"القائد الشهيد":
أبو طالب السنوار!

كتبه:
أبو عمر الشامي

"القائد الشهيد": أبو طالب السنوار!

جاء عند البخاري في قصة وفاة أبي طالب من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه رضي الله عنه:

أنَّ أبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ؛ دَخَلَ عليه النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعِنْدَهُ أبو جَهْلٍ، فَقَالَ: "أيْ عَمِّ؛ قُلْ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لكَ بهَا عِنْدَ اللَّهِ". فَقَالَ أبو جَهْلٍ وعَبْدُ اللَّهِ بنُ أبِي أُمَيَّةَ: يا أبَا طَالِبٍ؛ تَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطَّلِبِ! فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ، حتَّى قَالَ آخِرَ شَيءٍ كَلَّمَهُمْ بهِ: علَى مِلَّةِ عبدِ المطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ما لَمْ أُنْهَ عنْه". فَنَزَلَتْ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة ١١٣]، ونَزَلَتْ: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}).

من المعلوم أنه لم يدافع أحد عن نبينا عليه الصلاة السلام في فترة الاستضعاف المكي مثلما دافع عنه عمه أبو طالب؛ فقد بلغ من حَدَبه وحرصه ودفاعه عنه أنه خاصم قريشًا كلها وحاربهم في سبيل ابن أخيه الرسول المصدق عنده، حتى كان في حصار الشعب لا ينام حتى يبدل منام رسول الله برجل من بني هاشم، ويحتاط لرسول الله ما لا يحتاط لنفسه، ودخل في الشعب مع الرسول وصحبه وحوصر وبذل صحته وماله، حتى مرض بعد الحصار ثم مات.

مات مدافعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، محبًّا له، صادقًا في نصرته ومحبته ومحبة دينه، كما ذكره في لاميته المشهورة:

لَعَمري لَقَد كَلِفتُ وَجدًا بِأَحمَدٍ ... وَإِخوَتِهِ دَأبَ المحِبِّ المواصِلِ

أُقيمُ عَلى نَصرِ النَبِيِّ مُحَمَّدٍ ... أُقاتِلُ عَنهُ بِالقَنا وَالقَنابِلِ

فَلا زالَ في الدُنيا جَمالًا لِأَهلِها ... وَزَينًا لِمَن ولّاهُ رَبُّ المشاكِلِ

فَمَن مِثلُهُ في الناسِ أَيُّ مُؤَمّلٍ ... إِذا قاسَهُ الحُكّامُ عِندَ التَفاضُلِ

حَليمٌ رَشيدٌ عادِلٌ غَيرُ طائِشٍ ... يُوالي إِلهًا لَيسَ عَنهُ بِغافِلِ

فَأَيَّدَهُ رَبُّ العبادِ بِنَصرِهِ ... وَأَظهَرَ دينًا حَقُّهُ غَيرُ ناصِلِ

فَوَ اللهِ لَولا أَن أَجيءَ بِسُبَّةٍ ... تَجُرُّ عَلى أَشياخِنا في المحافِلِ

لَكُنّا اتّبَعناهُ عَلى كُلِّ حالَةٍ مِنَ الدَهرِ جدًّا غَيرَ قَولِ التَهازُلِ

لَقَد عَلِموا أَنَّ اِبنَنا لا مُكَذَّبٌ لَدَيهم وَلا يُعنى بِقَولِ الأَباطِلِ

فهذا بعض كلامه، ثم ختم حياته بأن صدق قوله بفعله؛ فمات في سبيل الدفاع عن رسول الله مناضِلًا مكافحًا، بعد أن صابَرَ الحصار ولم يخفر الذِّمار، في صورةٍ فيها أجلى معاني التضحية والفداء والبذل والوفاء، ثم كان ماذا؟؟

جاء عند أبي داود بسند صحيح: "أن عليًّا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن عمك الشيخ الضال قد هلك، قال: "اذهب فَوَارِه"، قال: إنه مات مشركًا! قال: "اذهب فَوَارِه".

لم يشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازته بل وتردد علي رضي الله عنه في دفنه!! وقبل ذلك وأعظم منه قول علي: " إن عمك الشيخ الضال.."، ولم يزجره النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله هذا ولم ينكره.

سبحان الله! "الشيخ الضال"؟؟!!

نعم؛ الشيخ الضال الذي مات على الشرك ولم يوحِّد الله عز وجل، رغم كل ما بذله من عطاء وتضحية وفداء في سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل ورغم أنه كان مصدقًا برسول الله صلى الله عليه وسلم، ويشهد بأنه صادق لا يكذب، إلا أنه لم يحقق هذا التصديق بما ينجيه عند الله من التزام التوحيد والخضوع للرسالة.

هذا هو ميزان الشرع في الحكم على الرجال.. فما هو وزن أبي طالب في ميزان المفتونين من أهل زماننا؟

إنك لتجزم أنهم لو أدركوه لرفعوه إلى مرتبة الصديقية، ولجعلوه بعد الأنبياء وخير الشهداء وأفضل الأصفياء وأولى الناس بالجنة، ولبنوا له ضريحًا ودعوا الناس إلى زيارته، وصاغوا فيه الأشعار وحكوا الأحلام والرؤى والمنامات، ولرأوه في الجنة يجلس مع رسول الله وحوله أبو بكر وعمر، وجبريل آخذ بيده وميكائيل عن يساره، ولعُدّ الطاعن فيه من أكفر الناس وشرهم وأبغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنشؤوا وسمًا "كلنا أبو طالب" أو "سبيلنا سبيل أبي طالب"!

فهذا بعض ما كنت ستجده يقينًا على ميزان أهل عصرنا وزيادة، كيف وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم!

لكن الميزان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له شأن آخر يختلف عن ميزان أهل العصر المطففين.

وكذا في ميزان علي رضي الله عنه الذي تربى في حجر النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يبلغ من العمر الحنث وقتها، لربما ينعت أباه بالشيخ الضال لما رآه مات على الشرك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينهاه ولا يقول: اصمت أو هو منا ونحن منه، بل لا يحضر جنازته ولا يقف عند قبره مع ابنه..

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: يا رسول الله؛ هل نفعت أبا طالب بشيء؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك. قال: "نعم؛ هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار".

نعم؛ أبو طالب خالد مخلد في النار لا يخرج منها أبدًا –وإن كان أخف أهلها عذابًا، وليس فيه خفيف، نسأل الله العافية–، ولم يشفع كل صنيعه وصدق محبته وبذل نفسه وماله في سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم في دخول الجنة أو أن يعتبر من المسلمين؛ لأنه لم يقم بأعظم حق عليه؛ وهو حق الله بإخلاص العبادة والتوحيد له سبحانه.

فهذا هو ميزان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وهذه سبيله، وهذا ميزان أهل الإيمان والإسلام، وما سواه فموازين الجاهلية.

لذلك جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضيَ اللهُ عنهُ؛ قَالَ: شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُنَيْنًا، فَقَالَ لِرَجُلٍ مِمَّنْ يُدْعَى بِالْإِسْلَامِ: "هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ"، فَلَمَّا حَضَرْنَا الْقِتَالَ قَاتَلَ الرَّجُلُ قِتَالًا شَدِيدًا، فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ الرَّجُلُ الَّذي قُلْتَ لَهُ آنِفًا: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّهُ قَاتَلَ الْيَوْمَ قِتَالًا شَدِيدًا، وَقَدْ مَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِلَى النَّارِ"، فَكَادَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرْتَابَ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ، وَلَكِنَّ بِهِ جِرَاحًا شَدِيدًا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى الْجِرَاحِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَأُخْبِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: "اللَّهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ"، ثُمَّ أَمَرَ بِلَالًا فَنَادَى فِي النَّاسِ: "أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ".

وفي بعض الروايات أنه سئل فقال: إنما جئتُ عصبية لقومي، فلما لم يكن قتاله في سبيل الله وإعلاء لكلمة الله لم يشفع له قتاله وقتله للكفار وشدته عليهم ونصرته للإسلام أن يكون من أهل الجنة، بل علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدة عظيمة في ذلك: وهي أن الله قد يهيئ لدينه من يؤيد به دينه ويجعله من أسباب ظهوره وإن لم يكن من أهله!

وإن في مقتل السنوار لعبرة في زماننا؛ تنظر فيها مكانة الدين والتوحيد بين أهل الزمان.

فهو في ميزان الجاهلية المعاصرة سيد شهدائها وقدوتها، وصفوة خيارها وبقية سلفها، وعصاه عصا موسى عليه الصلاة والسلام! وغيرها من الألقاب التي خُلعت عليه؛ حيث لم يبق له إلا مقام النبوة وبعضهم قاربه!

أما في ميزان رسول الله صلى الله عليه وسلم وميزان دين الله: فكل من سمع وتابع كلام الرجل –وقد أُمِرنا بالحكم على الظاهر– ليجد عنده ثلاث طوامّ بل قل: ثلاث بواقع؛

أولاها: إعلانه صراحة أن غايته هي الوطن والأرض، وأنه في سبيل ذلك "نضع الدين والمذهبية جانبًا" كما قال بحروفه، ولأجل ذلك لم يكن يجد غضاضة في الثناء البالغ على الطاغوت الهالك عرفات، وكذا اعتبار كل الجماعات الفصائل الفلسطينية بغض النظر عن انتمائها ورايتها ودينها وغايتها (ومنها الفصائل الشيوعية!!) إخوة الطريق والمنهج، وإننا إذ سمعنا منه مرارًا وتكرارًا علنًا جهارًا أن غايته تحرير الوطن وأن قضيته وطنية وفي سبيلها يتحد مع كل ملحد وكافر، وفي المقابل لم نسمع له عَلَنًا ولو لمرة واحدة أن قتاله إنما هو في سبيل الله ولإقامة دين الله وتحكيم شرع الله..

ثانيها: أنه كان من أشد الناس دعوة إلى التقارب مع الرافضة واعتبار جماعته وإياهم جبهة واحدة، حتى عدت كتائب القسام في بيان نعيه أن هذه من فضائله وهي والله من أبأس طوامه! فبعد أن كانت حماس تتعامل مع الرافضة في ظنها –كما كان يزعم من يبرر لهم– من باب التقية والسياسة الشرعية والضرورة المصلحة، وهذا كله ظلمات في ظلمات، إلا أنها انتقلت مع السنوار إلى حالة اقتناع واعتناق بوجوب الاتحاد مع الرافضة وأنهم جزء من الأمة فأعلنوا معهم وحدة المسار والمصير –وبئس المسار والمصير–.

إن من جعل طاغية الشام ذبّاح المسلمين وجنده أكفر خلق الله الذين هم أكفر من اليهود والنصارى بإجماع المسلمين، مَن جعلهم جندَ الشام المبشر بهم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ضم إليهم جنود حزب اللات بل جعلهم الركن الأهم في جند الشام، وصرخ بذلك علنًا جهارًا أمام جماهيره في الوقت الذي كانت فيه قطعان أولئك المجرمين تفتك بمسلمي العراق والشام؛ إنَّ جَعْلَ مثلِ هذا الرجل مِن أولياء الله: لهو من الكذب على الله ورسوله، والاستهزاء بالدين الذي لا يرضاه من فهم أبسط قواعد التوحيد ولم يؤجّر عقله لأبواق المخابرات الأمريكية الصليبية من الجزيرة وأخواتها.

ثالثها: تنسيقه مع المخابرات المصرية واستقباله كبار مجرميها جهارًا نهارًا، وأخذ الصور معهم، والاتفاق معهم على المساعدة في محاربة "الإرهاب" في سيناء، والذي كان حينها يخوض أعتى المعارك بوجه الطاغوت المصري وجنده

وصحواته، وهذا مما أعلنوه على الملأ ولم يستحيوا منه، ظانّين أنهم بذلك يدفعون عن أنفسهم تهمة الإرهاب ويضعون لهم يدًا عند النظام الدولي الكافر ليكونوا جزءًا منه، وهذا حكمه في دين الله لا يحتاج إلى كثير بيان!

فهذه ثلاث طوام بواقع راكم بها هذا الرجل على نفسه ركام المحادّة والتمزيق والنسف للولاء والبراء وإخلاص الراية والغاية لله عز وجل، فهو مندفِنٌ في ركامها من قبل أن يركم عليه اليهود –لعنهم الله ومكننا من رقابهم– ركام المنزل الذي تحصن فيه، ولله الأمر من قبل ومن بعد..

ثم إذا طفنا في حقيقة الواقع الماثل الأعم؛ لّوجدنا أن الرجل كان مترأسًا لطائفة قارفت الأفاعيل بحق جناب التوحيد والشريعة؛ من إصرارها على عدم تحكيم الشريعة وتسييدها، ومن مشاركتها في الانتخابات التشريعية الشركية على قاعدة الدستور الفلسطيني الوضعي، والتزامها بالدولة الوطنية القائمة على الدستور الوضعي، وإقرارها التحاكم للطاغوت الدولي ومؤسساته، وأعظم من ذلك نكرًا: محاربتها لكل من طالب بتحكيم الشريعة، وغير ذلك الكثير من معالم حقيقة هذه الطائفة التي ترأسها هذا الرجل، والتي تجعل التنظير بين مجانبة أبي طالب للتوحيد ومجانبتهم للتوحيد تنظيرًا ظالمًا جائرًا لأبعد حد، فضلًا عن أن التنظير بين ما أدّاه أبو طالب من خدمة لمصلحة الإسلام وبين ما أدّاه هؤلاء يعد كذلك من أشنع المجازفة.. غير أن المقصود هو مطلق التقريب للمشهد في الأذهان والله المستعان..

نعم؛ قد يقال في الرجل إنه كان شجاعًا عنيدًا أو صلبًا شديد المراس أو ذكي التخطيط –لا كما حاول اليهود وصفه بالجبن والخور والاختباء–، ومن يعرف الرجل أو يسمع له تظهر له معالم هذه الشخصية التي أهلته للتصدر والقيادة فكان قائدًا، نعم! ولكنه للأسف لم يكن في سبيل الله في سبيل التوحيد في سبيل الشريعة، وإنما كان قائدًا مجاهدًا في سبيل قضية وطنية كانت هي ميزانه وبوصلته ومنطلقه وغايته وهو سبيل يفارق سبيل الله؛ لذلك كان ولاؤه وبراؤه في سبيل هذه القضية لا في سبيل الله، وقد نال الرجل حظوته في الدنيا عند أهلها بما وصفوه به.

إن مجرد انتساب الرجل إلى الإسلام وحربه لليهود وتنكيله بهم وحتى تدينه الشخصي إن وجد: كل هذا ليس كافيًا بل وليس معتبرًا أصلًا لِعَدّ قتاله قتالًا في سبيل الله، فلا يكون في سبيل الله حتى يكون غايته أن يكون الدين كله لله قوّامًا بشرع الله في نفسه مجاهدًا لإقامته في غيره، وأن يوالي في الله ويعادي في الله، يوالي ويعادي من أراده الله لا من أرادته فلسطين والقدس!

ولو كان مجرد تمني الشهادة والقول إن أعظم هدية تقدم لي هي الشهادة ونحوها من الخطابات العاطفية كافيًا لِعَدّه من أهل الجهاد: لَكان الهالك عرفات –قدوته– يستحق هذا الوصف لما قال في خطابه المشهور: "هم يريدونني طريدًا ... لأ أنا بقولهم: شهيدًا شهيدًا".

إن نيل الدرجات الدينية والحظوة الإسلامية في ميزان الشرع لا نأخذه من قناة الجزيرة ومذيعاتها الفاجرات المستأجرات، ولا من ضيوفها العاطلين الباحثين عن عمل يدر عليهم مالًا فيطلقون أوصاف الشهادة على من يريده صاحب العمل ويسلبونها ممن يرفضه صاحب العمل، إنما المسألة جد وليست بالهزل حتى تترك لأولئك الأراذل.

وهذا الكلام لا يتماشى مع غالب أهواء الناس التي تحب أن تسمع من يدغدغ عواطفها ويكلمها بما تحب وتهوى، لذلك ستحمر له أنوف ويُرمى قائلوه بالجهل والغلو والخارجية وغيرها.. ولكنه دين الله شاء من شاء وأبى من أبى وإن تناخرت أنوف لذلك، والمسألة ليس فيها خفاء لمن أخلص وتجرد، ولكن حبك الشيء يعمي ويصم.

ويا ليت من لبسوا لبوس الإنصاف فرأوا أن مدحه والثناء عليه وعَدّه من شهداء الأمة الأبرار، وأن هذا لا يلزم منه موافقته في كل فعاله: لبسوا نفس اللباس لما حكموا وتكلموا على من قُتِلوا في مواجهات مع الصليبيين في وقائع أسقطوا فيها طائرات، وقتلوا من جنود الصليب من قتلوا، أو فجروا أحزمتهم الناسفة بشجاعة لا مثيل لها.. ولكن عند الله تجتمع الخصوم.

وللمفارقة فإن الطائفة الوحيدة التي تحكم بإسلام أبي طالب وتواليه: هم الرافضة؛ لزعمهم أنه أسلم وأنه من خيار الناس لدفاعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل البيت، فعلى مقياس الرافضة —الذين عاش الرجل مواليًا لهم مادحًا لهم— يستحق الرجل أوصاف الثناء الديني ورتب الشهادة؛ لأنه كان في عدوتهم، بل كان سهمًا من سهامهم وذراعًا من أذرع ولي الرافضة السفيه كما يصرحون بأنفسهم.. ولكن هذه الشهادة التي تأتيه من هؤلاء الأراذل المشركين لن تشهد له عند الله ثم عند عباد الله إلا أنه كان في عدوة الرافضة شياطين الشرك وسبّابي الصحابة وأمهات المؤمنين، الذين غرّوه وكذبوه في خطة الطوفان بزعمهم، فأوردوه المقتلة وأورد معه المسلمين من أهل غزة فيها وإنا لله وإنا إليه راجعون..

والرجل الآن عند حكم عدل لا يظلم عنده مثقال ذرة، ولكن الشأن في تصحيح الطريق والاستيقاظ من الغفلة لمن أراد الله به خيرًا، وإعلان الراية صافية نقية لله تعالى —ولا أظن قادة تلك الجماعة ينالون ذلك الشرف بعد أن طال عليهم الأمد كما نحسب—، ولكنها دعوة للصادقين أن هلموا إلى الراية النبوية فإن أوان نصرتها قد حان!

كتبه:

أبو عمر الشامي، أحسن الله خلاصه

ربيع الآخر ١٤٤٦

أوار الحق